أنيس منصور.

العدد 17 من أوراق الرئيس السادات السنة الأولى 1977

الجليد يذوب :

بين موسكو ومصر!

محادثات كسنجر دون إذن من موسكو: كانت جريمة ؟ !

بعد انتصارات أكتوبر ظلت أرضنا يحتلها اليهود. ولابد أن تجىء ثمار هذا النصر العظيم.

وجاء كيسنجر يتحرك خطوة خطوة بين العواصم العربية وتل أبيب.. ثم انفك الاشتباك .. وتباعدت القوات المتحاربة. وكان ذلك إنجازاً عظيماً في المنطقة. وفرصة جديدة للتشهير السوفيتي بمصر.

وحاول الرئيس السادات أن يصل الخطوط التي انقطعت. ولم ييأس من حل لعلاج أي شىء وكل شىء. ولكن السوفيت لا يريدون أن يغيروا موقفهم. بل إنهم أثاروا عليه العرب في كل بلد وكل موقع. وقالوا إن هناك اتفاقاً سرياً مع الأمريكان أو اتفاقاً سرياً مع اليهود. وإن كل ذلك قد تم من وراء ظهر الأمة العربية... فالمصريون خونة... انعزاليون تصفويون.

وفشل كيسنجر في أن يذهب إلى أبعد مما ذهب. وفي نفس الوقت تكاثرت الكوارث على البيت الأبيض والإدارة الأمريكية وأطاحت بالرئيس نيكسون الذي كانت زيارته لمصر شيئاً مذهلاً. وقال السوفيت: إنه الاتحاد الاشتراكي الذي نظم حفلات الاستقبال والطبل والزمر لنيكسون في الشوارع؟!

وسافر وزيران وعادا، ولا شىء معهما... فلم يحصلا على شىء ولا وعدهما أحد بأي شىء، ولا أمل في أي شىء ..

وبنهاية سياسة الخطوة خطوة يدخل الرئيس السادات في التعبئة العامة لمرحلة جديدة من الحل الشامل .. أو الحملة من أجل السلام .. وازداد موقف السوفيت عنفاً في الحملة والتحامل على مصر والمصريين.....

أما ملاحظاتي على د. كيسنجر فهي أنه رجل قد درس التاريخ وأطال فيه النظر. وقلبه وتقلب عليه أيضاً. وربط بين الدراسة والسياسة، بين كتب التاريخ وأحداث التاريخ، ولذلك لم أجد

صعوبة في فهمه. فأنا- كما قلت- مولع بدراسة التاريخ. وملاحظة أخرى على د. كيسنجر.. أن له نظرة شاملة. فهو قد درس القضية من جميع نواحيها. ومن المألوف أن يقول الإنسان: إن التركيز على شيء يجعله واضحاً. إلا في السياسة .. فإن النظرة الواسعة الشاملة هي التي تجعل القضية أوضح. ولذلك فقد أحسست بعد ساعة من النقاش والحوار أننا متفاهمان... أو على الأصح من الممكن أن نتفاهم.

وليس معنى ذلك أن وجهة نظري مطابقة لوجهة نظره ولكن الذي أقصده أن لغة الحوار واحدة. وأن الأرضية التي وضعنا عليها قضية الشرق الأوسط واحدة. فأنا استريح إلى التفسير العلمي. وأرى أوضح إذا كانت الرقعة أو الخريطة التي أمامنا واسعة متعددة الأطراف والجوانب.. ومثل هذه النظرة إلى الأمور تجعل اهتمام صاحبها بالقضايا الكبرى في المقام الأول. وتجعل الاهتمام بالجزئيات شيئاً ثانوياً. ولذلك عندما أعكف على مثل هذه القضايا، فإنني لا أحب أن أدخل في تفاصيل جانبية، أو خلافات فرعية.. فأنا أريد أ، أرى أوضح.؟ وهذا يعني أن أرى أشمل.

وقد اختلفت مع د. كيسنجر كثيراً. ولكن هذا الخلاف تحول بسرعة إلى نقط للوثوب إلى مجالات أخرى للتفاهم. فكل نقطة معقدة يمكن بالمناقشة ورؤية وجهات النظر الأخرى، أن تكون نقطة للالتقاء.

وملاحظة ثالثة: أن هذا الرجل كان صبوراً. وأنا رجل صبور. ومصدر صبره هو الواقعية أو هو الموضوعية. أو هو " البعد النفسي" الذي أدركه بوضوح. فنحن واليهود على خلاف شديد. والخلاف قديم. ونتائجه متراكمة. وليس من السهل حل العقد الكثيرة جداً التي بيننا. وإذا كان المثل يقول: إن قطع العقدة أسهل من حلها. فإنني أقول إن هذا المثل ليس صحيحاً في السياسة. فالعقد السياسية لا يسهل حلها. ولكن قطع المواصلات والاتصالات والعلاقات ليس هو الطريقة المثلى لحل العقد .... وإنما الطريقة المثلى لتجاهلها وتفويت الوقت المناسب لحلها.

أما مصدر الصبر الذي عندي، فهو خلاصة لنظرة واقعية وخلاصة للقدرة على التحمل وضبط النفس وأن الوقت يعمل لصالح الذي لا يخطئ كثيراً والذي لا ينفعل والذي يرى أوضح!.

ومن الصعب أن يرى الإنسان أوضح إذا كان في حالة غضب أو إذا كان متعجلاً، أو إذا لم يدرس بما فيه الكفاية. ولذلك لم أشعر بالضيق في مناقشاتي مع د. كيسنجر. ولا أظن أنه هو شعر بذلك. وإنما أصابه اليأس من الأطراف الأخرى...

وملاحظة رابعة: أن د. كيسنجر قد اكتسب ثقة بالنفس هائلة.

ومثل هذه الثقة بالنفس أيضاً هي التي صاحبت المقاتل المصري والمفاوض المصري.. بهذه الثقة بالنفس دخلنا حرب أكتوبر وخرجنا منها منتصرين.. وهي أيضاً التي شدت من أزر المفاوض المصري، ورجل الشارع المصري الذي استقبل الرئيس نيكسون بعد ذلك بمنتهى الحماس والصدق، وبلا عقد من أن هذا رئيس أمريكا. إنما نظر رجل الشارع المصري إلى الرئيس الأمريكي على أنه قادم من الدولة التي تستطيع واستطاعت أن تحل القضية.

بهذا الشعور التلقائي استقبل الناس الرئيس نيكسون. واستقبلوا وانتظروا وتوقعوا زيارات وزير خارجيته د. كيسنجر..

وتتوالى أحداث اللقاءات والمفاوضات عند الكيلو 101 والنقط الست التي جاءت في خطاب بعث به د. كيسنجر إلى سكرتير الأمم المتحدة كاقتراحات لوقف إطلاق النار. وتثبيته وضمانه.. ثم التحرك بعد ذلك من أجل تحقيق سلام على الجبهتين المصرية والسورية...

وجاء اليهود وخرقوا اتفاقية وقف إطلاق النار بعد ثلاث ساعات....

وأعادت مصر العلاقات مع أمريكا بعد فض الاشتباك الأول. فأمريكا هي القادرة على الحل، لأنها شريان حياة إسرائيل. وهي التي استجابت لندائها لإنقاذها في هذه الحرب. ثم نزلت أمريكا عشرة أيام في المعركة ضدنا...

هذه هي الحقيقة قد أدركها الناس في مصر بفطرة وواقعية وثقة بالنفس، وبلا لف أو عقد ودون أن يملئوا رءوسهم بعبارات فارغة تطالبهم بألا يتعاملوا مع الإمبريالية ومع المجرمين الأمريكان... كيف يتجاهل أي إنسان سليم التفكير، دور أمريكا في الشرق الأوسط؟ وفي أنها مصدر الحياة لإسرائيل، وهي لذلك القادرة على أن تحل ؟ كيف؟!

إن المواطن المصري لم يحتاج إلى مجهود كبير لكي يدرك أهمية زيارة د. كيسنجر لمصر أو للمنطقة. بينما في بلاد أخرى احتاجت الحكومات إلى أيام طويلة لتهيئة أذهان الناس لقبول زيارة د. كيسنجر. فلما طلب د. كيسنجر أن يجيء لزيارتي رحبت فوراً. وجاء د. كيسنجر

لتقوم قيامة الاتحاد السوفيتي. ويحرك أشكالاً وألواناً من الناس في كل العالم العربي ضد مصر والقيادة المصرية. لماذا؟ لأن مصر اتصلت بالأمريكان. ولأن مصر تعتقد أن أمريكا هي القادرة على الحل ولأن مصر قد وافقت على أن يزورها وزير خارجية أمريكا النجم الصاعد في السياسة الدولية: هنري كيسنجر..

ورغم ذلك فقد حرصنا على أن نظل على علاقة طيبة بالاتحاد السوفيتي. وبعد أن اتفقنا على النقط الست التي تقدم بها كيسنجر أرسلنا ملخصاً بكل ما حدث للاتحاد السوفيتي. وكانت النقط الست تتلخص في الإبقاء على وقف إطلاق النار، وبداية المحادثات والعودة إلى مواقع 22 أكتوبر في إطار فك الاشتباك وفصل القوات تحت إشراف الأمم المتحدة وأن تكون هناك نقط للمراقبة تابعة للأمم المتحدة على خط وقف إطلاق النار وبعد ذلك يتم الاتفاق على تسليم الأسرى والجرحى.....

ولم يسترح السوفيت إلى شيء من هذا كله.

صحيح أنهم في ذلك الوقت لم يعلنوها صراحة. لكن لم يفتهم أن يفعلوا ما هو أسوأ من ذلك. فقد حركوا علينا المنطقة. وتطايرت الاتهامات لمصر من الفلسطينيين والسوريين وغيرهم .. لماذا؟...

لأننا أخرجناهم- كما يقولون- من المحادثات والمفاوضات ومن التسوية لكل القضية. لأننا نتحرك دون علمهم، أو نتفق من وراء ظهورهم. ولذلك فالذي قامت به مصر هو : حل منفرد .. أو موقف تصفوي... وأن مصر قررت أن تنسحب من الساحة العربية.. وأن مصر تنكرت لعروبتها .. وأنها انتكست إلى مصريتها وانطوت في قوقعتها.. وأنها خانت أمانة الأمة العربية.... كل ذلك لأننا نحاول أن نحل القضية مع الطرف القادر على أن يفعل شيئاً.

وشيء غريب أن يتصور أحد أن مصر تنفرد بالحل في قضية " متعددة" الأطراف .. كيف يكون الحل مصرياً لقضية عربية؟.. فالحل يجب أن يكون عربياً لأن القضية عربية.. وقد أثبتت الأيام. بعد ذلك صحة كل خطوة خطتها مصر. وأعلنتها في حينها.. وكل ما أعلنته مصر بوضوح وشجاعة، هو الذي تبنته بعد ذلك أطراف أخرى.,. فكأن غلطة مصر هي أنها سبقت زمانها، لأنها رأت الصورة أوضح قبل أن يدركها الآخرون....

ولكن جريمة مصر في نظر السوفيت قائمة ومستمرة:

إنها تتصرف دون إذن من موسكو أو دون اتفاق سابق على كل خطوة تخطوها. وهــذا مــا رفضته في كل وقت.، وفي كل الظروف وما سوف أرفضه اليوم وغداً.

وما سوف أوصي به الأجيال من بعدي: أنه لا سيادة لأحد على مصر إلا مصر نفسها. هذا ما فعلت وما تعذبت بسببه. ولن أندم عليه. .. وإنما قد أضفت ذلك كله إلى رصيدي من راحــة الضمير عندما أتلفت ورائي أنظر إلى ما قدمت لبلدي ولشعبي، مع عظيم الامتنان لله سبحانه وتعالى أن وهبني القدرة على أن أكون خادماً مخلصاً لمصر، ومدافعاً حتــى المــوت عــن كرامتها!.

ولكن السوفيت أشاعوا أن هناك " طبخة" سرية تقوم بها مصر.. هذه الطبخة هي اتفاقية سرية مع الأمريكان لحل الموقف على الجبهة المصرية.....

ونجح السوفيت في إحداث وقيعة بيننا وبين سوريا الشقيقة. بدأت عندما قبلنا الذهب إلى جنيف في 21 ديسمبر عام 73، ورفضت سوريا. وقيل ما قيل. والفضل يرجع إلى الســوفيت فــي إشاعة الفرقة بين الصفوف والتباعد بين القلوب....

وبدأت رحلات المكوك كيسنجر... أي الرحلات بين العواصم العربية وتل أبيب ذهاباً وإياباً. وتم الاتفاق على فض الاشتباك الأول. وتضاعفت غضبة السوفيت وترددت أصــداؤها فــي الإذاعات والصحف. لماذا؟ لأننا وافقنا على مجيء كيسنجر. ووافقنا على فض الاشتباك، مع أن فك الاشتباك ليس إلا تحريكاً للموقف. وليس هو الحل. بل إن فك الاشتباك لم يكن ســوى اقتراح من أمريكا لفتح الطريق بعد أن وصلنا إلى نهاية مشــدودة... حتــى هــذا الموقــف الأمريكي لم يقبله السوفيت, وحرضوا قطاعات من العالم العربي ضد مصر.

وبعد توقيع فض الاشتباك الأول كنت في أسوان، وسافرت إلى البلاد العربية أشرح وأوضــح تلك الجريمة التي ارتكبتها مصر .. إنها جريمة في عيني السوفيت. وزرت في رحلتي هــذه إمارات ودول الخليج وشمال أفريقيا...

وحتى لا يزدد الموقف سوءاً طلبت من إسماعيل فهمي أن يبعث بورقة مطولة إلى جروميكو يشرح له كل ما جرى. ولكن هذه الورقة لم تؤد إلى تغيير في موقف الســوفيت. بــل علــى العكس من ذلك ازدادت حدة الحملات على مصر، حتى دخلنا في مرحلة فك الاشــتباك الأول على الجولان. الذي قام به كيسنجر أيضاً. وعندما التقيت بالرئيس حافظ الأسد فــي مــؤتمر الجزائر حكيت للرئيس الأسد تفاصيل اتفاق فض الاشتباك على الجبهة المصرية.

ومن الغريب أن كل شيء قد تم كما قلت. وكما أعلنت ووضحت للشعب ولكل الأشقاء العرب وعلى أعلى المستويات. وهدفي واحد: أن أساعد في حل القضية. وأسلوبي في ذلك هو المصارحة والشجاعة والصدق، ولذلك لست في حاجة إلى أن ألف أو أدور، أو أن أواجه الناس برأي وأخفي عنهم رأياً آخر... لم يحدث ولن يحدث شيء من ذلك. وهذا معروف لكل الناس.

وقد أعلنت في ذلك الوقت أن كل ما أحاوله هو نزع الفتيل من الموقف المتفجر في الشرق الأوسط. وأن هذا كله ليس حلاً، وإنما هو طريق إلى حل. وأن الحل السياسي إذا لم يحقق شيئاً، فلا مفر من القوة، والعودة إلى أسوأ مما كنا عليه.. وطبيعي لم يسترح السوفيت إلى كل ما قلته في البلاد العربية. وما نشرته الصحف وما أعلنه الزعماء العرب الذين اقتنعوا بالسيادة المصرية، وبضرورة أن تكون لمصر سيادة على قدرها...

حتى جاءت زيارة الرئيس نيكسون لمصرر. وكان استقبال الشعب لهذا الرجل شيئاً لا نظير له.. وخرج الشعب برجاله ونسائه وأطفاله جميعاً لاستقبال الرئيس الأمريكي. وكان هذا الاستقبال مذهلاً له، وللأمريكان وللعالم كله. كان شيئاً خرافياً.. حتى هذا التعبير ليس من عندي. وإنما استخدمه الأمريكان.

ولعل نيسكون كان يرد على ما قاله السوفيت عندما قال: في استطاعة أي إنسان أن يملأ الشوارع بهؤلاء الناس ولكنه ليس في استطاعته أن يجعلهم يضحكون...

فقد أعلن السوفيت أن الناس لم يخرجوا من تلقاء أنفسهم. لأن الشعب يكره أمريكا ويكره نيكسون. وإنما الذي حشد الناس في الشوارع هو الاتحاد الاشتراكي. ولو صح أن للاتحاد الاشتراكي هذه القوة على حشد كل الناس وعلى إشعال الحرارة فيهم، وإطلاق السعادة على وجهوهم، لكان أعظم تنظيم سياسي في العالم كله.. وعلى ذلك يجب أن نعيده إلى ما كان عليه!

ولكن انشغلت أمريكا بعد ذلك بمشاكلها القومية العنيفة.. جاءت فضيحة ووترجيت التي أطاحت بالرئيس نيكسون.

وكان طبيعياً بعد هذا الاستقبال العظيم أن يعجل اليهود بنهاية نيسكون. فكان الفصل الأخير من فضيحة ووترجيت: وهي التصنت على الحزب الآخر.. فاستقال نيكسون بعد ذلك في نهاية 1974....

ولم أتوقف عن محاولة مد الخطوط والمواصلات بيننا وبين السوفيت. فأنا أعرف عقدهم. وأعرف الشك الذي هو أسلوبهم في التفكير. وأعرف أن كل ما جرى في مصر لا يمكن إصلاحه في روسيا. ولكني سأحاول، ولن أتوقف عن المحاولة.

فأرسلت إسماعيل فهمي إلى الاتحاد السوفيتي. وقابل برجينيف. وقبل ذلك كان إسماعيل فهمي قد أرسل تقريراً مفصلاً إلى جروميكو. وفي موسكو أصدر الاتحاد السوفيتي بياناً وافق فيه على فك الاشتباك الأول. ومعنى ذلك أننا لم نرتكب جريمة، وإنما كل ما حدث هو التباعد بين القوات المتحاربة. وموافقة الاتحاد السوفيتي على ذلك معناها، أننا لم نرتكب خيانة للعرب ولقضايا السلام ولم نقم بحل تصفوي وإلا فما وافق الاتحاد السوفيتي!

ولما تحدث إليهم إسماعيل فهمي كان يركز على نقطتين: أولاً : جدولة الديون. وثانياً تعويض الأسلحة التي فقدناها في الحرب وذلك بأن يبيع لنا الاتحاد السوفيتي أسلحة جديدة نعوض بها خسائرنا، تماماً كما فعل مع سوريا قبل 22 أكتوبر 1973. وما بعد ذلك حتى وقت قريب جداً .... ولكن السوفيت قدموا له مفاجأة كبرى. فقد أخبروه بأن بريجينف سوف يزور مصر في يناير سنة 1975. ولما أرسل لي إسماعيل فهمي بهذا النبأ، أسعدني جداً. وأدركت أن المشاكل كلها في طريقها إلى الحل. وأن رجلاً مثل بريجينف لابد أن يكون عنده ما يقوله وما يفعله. فهو الرجل الأول في روسيا.

ولذلك وجدت أنه من الأفضل أن نستغل الوقت. وأن نساعده على حل جميع المشاكل المعلقة من جدولة الديون وصفقات السلاح المعقودة في سنة 1973 والتي لم ترد إلينا حتى ذلك الوقت.

ثم تحدد موعد زيارة بريجنيف لمصر في يومي 7و 8 يناير.

ووجدت أن أمريكا غارقة في مشاكل الرياسة الأمريكية ومصيبة ووتر جيت. فقد ذهب الرئيس نيكسون وجاء من بعده الرئيس فورد. وهو في حاجة إلى وقت لكي يرتب البيت ويمحو آثار ووترجيت. وهو محتاج إلى وقت لكي يرى ويفكر ويدبر. وعنده مشاكل داخلية ودولية. .. كل ذلك سوف يجعل من الصعب عليه وعلينا، أن نلتقي أو نسوي مشاكلنا المتفجرة المعلقة في المنطقة. إذن لابد أن ننتهز فرصة زيارة بريجينف لنحل مشاكل خطيرة بين البلدين... لأن أمريكا كانت قد دخلت في نوع من " التعرية الداخلية" أو " الافتضاح السياسي".. فهي حريصة على أن تفضح حكامها وشيوخها وتهز كل القيم التي تمسك المجتمع الأمريكي والإدارة القديمة والجديدة... وسوف يطول الكلام في ذلك...

وأنا أرى أن المعركة الانتخابية لم تبدأ حقيقة، في سنة 76. وإنما بدأت في كل 74و 75 .. وسوف تكون 76 سنة انتخابات، فلا أحد هناك قادر على أن يحل أو يربط أمراً من الأمور.

ثم حدث شيء مؤسف في ديسمبر 1975، أو في يوم 25 ديسمبر بالذات... توفى المشير أحمد إسماعيل في لندن. وكنت في ذلك الوقت في ميت أبو الكوم. أبلغوني هذا النبأ الحزين.. وفي نفس الوقت تلقيت تبليغاً من القيادة السوفيتية بأنها تريد من وزير الخارجية ووزير الحربية أن يزورا موسكو على وجه السرعة ... ورغم وفاة المشير إسماعيل التي آلمتني أشد الألم، فقد رأيت في دعوة وزيري الخارجية والحربية إلى موسكو قبل زيارة بريجنيف دليلاً جديداً على أن السوفيت يريدون حلاً للمشاكل المعلقة.

ولابد أن هناك أموراً تحتاج إلى اثنين من الوزراء، ولابد أنهم يريدون أن تكون زيارة بريجينف ناجحة... فيتم الاتفاق على كل شيء قبل أن يجيء إلينا.. مثل هذه الشخصية الكبيرة عندهم، لا يمكن أن تدخل في التفاصيل. وإنما ينتهي كل شيء قبل زيارته. وقبل زيارته، كما هي عادة السوفيت، ستكون اللجان المتخصصة قد أعدت كل شيء وعرضت كل شيء. وأصدرت قراراً وبياناً بعد ذلك..

وتلهفت على حل كل شيء قبل هذه الزيارة المقبلة. و اقترحت أن يسافر أربعة وزراء آخرون لحل كل القضايا الخاصة بالاقتصاد والكهرباء والتخطيط. وعلى الرغم من أنني أعلم مقدماً، أنني لو ظللت أتفاوض معهم مائة سنة فإنهم لن يعطوني إلا ما اتفقوا عليه قبل ذلك، وأن بريجنيف ليس إلا واحداً مثلهم، لكني غلبت الأمل والتفاؤل على كل هواجسي ومخاوفي.. وخشيت على نفسي أن تكون عدوي سوء الظن السوفيتية التقليدية قد انتقلت إلى تفكيري، ولذلك تحركت بسرعة..

ولكن عاد السوفيت يقولون إن القيادة تريد وزيرين فقط. ولذلك عينت محمد عبد الغني الجمسي وزيراً للحربية. وسافر إسماعيل فهمي والجمسي إلى موسكو يوم 28 ديسمبر.

وفي مطار موسكو كان في استقبالهما جروميكو وزير الخارجية وجريتشكو وزير الدفاع.

وفي السيارة أعلن جروميكو لإسماعيل فهمي: زيارة بريجينيف تأجلت لأنه مريض.

ثم اتجه الوزراء الأربعة لزيارة بريجنيف. وكان مريضاً حقاً. ولكن أحسن استقبالها وكان لطيفاً جداً معهما.

ثم عاد الوزيران المصريان في غاية الأسف، لأن شيئاً لم يتحقق. فلا جدولة للديون ولا تعويض للسلاح.

ولكن الأمريكان ورغم كل ظروفهم الداخلية السيئة، بعثوا يقولون إنهم يريدون استئناف الحركة من أجل السلام.

وفي مارس جاء د. كيسنجر لكي يبدأ خطوة جديدة في فض الاشتباك.

جاءني في أسوان. وكنت أتفاءل بأسوان بعد فك الاشتباك الأول...

وقد اجتهد المحللون السياسيون في تفسير حرصي على أن يتم كل شيء في أسوان... قال بعضهم إن أسوان ترتبط في أذهان المصريين والأمريكان معاً بالسد العالي... فقد رفض دالاس تمويل السد العالي وقالوا بعد ذلك إني أحاول أن أجعل الذكريات الأليمة ذكريات سعيدة.. كما قمت فتح قناة السويس يوم 5 يونيو .. وهو اليوم الذي انتكست فيه القوات المصرية وانسدت فيه القناة... ولكني على كل حال كنت أتفاءل بأسوان .. وإن كنت هذه المرة قد صارحت د. كيسنجر بأنني غير متفائل. وكان يؤكد أنه متفائل جداً... أما أنا فقد بنيت تشاؤمي على رد الفعل اليهودي لكل خطوات كيسنجر.

وأذكر أنني أعلنت له: أن هذه العملية مصيرها الفشل. اسمعها مني.

وقلت له. إن إسحاق رابين ضعيف وليس في قوة جولدا مائير....

ولم يصدقني أول الأمر ولكن بعد تسعة عشر يوماً قال لي : لا أمل...

وسألني إن كان من رأيي أن يعود. فقلت: لا داعي....

لقد توقعت ذلك...

وكانت مفاجأة كبرى للصحفيين الذين تجمعوا في أسوان عندما أعلن إسماعيل فهمي فشل المفاوضات على خطوات فك الاشتباك الثاني.. وكانت مفاجأة عنيفة.. فقد أحس العالم كله أن اليهود هم الذين تعنتوا. على الرغم من أنهم يذيعون ويشيعون أن المصريين هم الذين لا يريدون حلاً...

ولكني بادرت وفاجأت العالم كله بأنني سوف افتح قناة السويس يوم 5 يونية. وأنني قررت عودة المهاجرين إلى أراضيهم وبيوتهم. واعتبرت أن هذه المدن الثلاث من عمق مصر. وأن

ضرب عمق مصر يعني ضرب عمق إسرائيل أيضاً. وكان ذلك في كلمتي في مجلس الشعب. وكانت أوامري قد صدرت بعد ذلك عندما عينت عثمان أحمد عثمان وزيراً للإسكان في 28 أكتوبر سنة 1973.

وتمت إنجازات عظيمة في منطقة قناة السويس تعتبر قياسية في تاريخ التعمير والإسكان. وعلى الرغم من أن فشل محاولات كيسنجر الثانية قد ضايقتني كثيراً، فإنني وجدت شيئاً يريحني بعض الشيء، فقد انكشف هؤلاء الذين أشاعوا أن هناك طبخة سرية وراء هذا الفشل الهائل؟ لماذا لم تنجح الطبخة السرية؟.

لقد كان هذا الفشل دليلاً على قصر نظر هؤلاء الذين عقولهم في آذانهم، يسمعون ويكررون كالببغاوات ولا يفكرون.

وأحس اليهود أنهم في مأزق رهيب.... وتحدد أمام العالم كله أن ألتقي بالرئيس فورد في مدينة سالزبورج بالنمسا في أول يونيو.

وكنت أعلم، علم اليقين، أن الإدارة الجديدة ليست قادرة على أشياء كثيرة. فلا تزال مشاكلها عديدة. ثم إنها دخلت المعركة الانتخابية بالفعل بعد استقالة الرئيس نيكسون.

وبعد هذا اللقاء مع الرئيس فورد اشتدت الحملة السوفيتية، وراحوا يجددون الكلام القديم. وأشاعوا في كل مكان أن الخيانة المصرية ماضية. وأن القيادة المصرية تبيع القضية وإنها سلمت كل شيء لأمريكا نهائياً ... رغم فشل فك الاشتباك الثاني الذي كشفهم هم وفضحهم هم، فلم تكن هناك اتفاقيات سرية مع أحد! وفي أغسطس جاء د. كيسنجر. وكان يائساً. ولكني أكدت له أنه لا داعي للتشاؤم. وقلت له: في مارس الماضي أنت كنت متفائلاً وأنا كنت متشائماً.. وهذه المرة أنا المتفائل...

وبدأ د. كيسنجر رحلاته بيننا وبين اليهود. وكانت رحلات شاقة. وكانت الخلافات على كلمات هم يتمسكون بها. فيجيء إلينا يسألنا. ويسمعه منا ثم يعود إليهم. ويكون الخلاف على " حرف" أو ترتيب كلمة في عبارة... كان شيئاً مضحكاً ومحزناً في نفس الوقت.. ولكن الرجل لم يعرف اليأس..

وبعد عدة رحلات ذهاباً وإياباً أعلن د. كيسنجر:

معك حق. يبدو أن هناك أملاً...

وكنا وقتها في الإسكندرية. وكان يشاركني في هذه المفاوضات حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية وممدوح سالم رئيس الوزراء وإسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والفريق الجمسي وزير الحربية.

تمت العملية. انتهى كل شيء. قام الاتحاد السوفيتي ولم يقعد. ولم يهدأ له بال، ولم يشأ أن يهدئ بالاً لأحد....

وانقلب الاتحاد السوفيتي وأذنابه وضعاف النفوس على مصر يتهموننا بالخيانة والانعزالية والتصفوية .. وليس في هذه التهم شيء جديد.. وإنما كلها ترجع لسبب واحد لا ثاني له: أن لنا إرادة مستقلة. وأننا حريصون على ذلك...

ومن حق د. كيسنجر بعد ذلك كله أن يردد عبارته المفضلة التي أخذها عن أستاذه مترنيخ.. فقد كان يقول كثيرا: إنني أعرف ماذا أريد، وأعرف ماذا أريد، وأعرف ماذا يستطيع غيري أن يفعل، ولهذا فأنا جاهز دائماً!

ولم نختلف كثيراً على الطريقة التي نعالج بها الموقف. ولا الوسائل التي نتذرع بها إلى ذلك وإن كنا- كما ذكرت- قد اختلفنا كثيراً. ولكن اللغة واحدة. ولهذا أمكن لنا أن نحقق شيئاً كثيراً من النجاح. وإن كنت قد أعلنت بعد ذلك أن هذا هو آخر عهدنا بالخطوة خطوة، أسلوباً للحل الشامل...

وإن لم يكن هذا هو آخر عهدنا بالعلاقات السوفيتية التي تزداد سوءاً...